صورة الطبيعة والإنسان في شعر إيليا أبو ماضي: المرأة والوطن نموذجًا

مخلد محمد علي العايد

أ.د. محمد الشوابكة

الملخص:

تتناول الدراسة صورة الطبيعة وعلاقة الإنسان بها في ضوء معرفة العلاقة بالمرأة والوطن، وتسعى الدراسة إلى تحليل العلاقة بين الطبيعة والإنسان، التي تجلت فيها رؤية الشاعر. وقد أبرزت الدراسة عبر مباحثها المتعلقة بالمرأة والوطن عمق الصلة بين الشاعر والطبيعة. وتؤكد الدراسة أهمية الطبيعة في شعر أبو ماضي كفكرة تعبر عن الأبعاد الفكرية والنفسية التي امتزجت بها أشعاره، وعبّرت عنها. وتبين الدراسة الحالية صورة الطبيعة وارتباطها مع الإنسان في تصوراته وأفكاره.

الكلمات المفتاحية: الطبيعة. المرأة. الوطن. المهجر. أبو ماضي.

The Image of Nature and Human in Elia Abu Madi Poetry: The Woman and Homeland as a Model

Abstract

The study deals with the image of nature and the human relationship with it in light of the knowledge of the relationship with women and the homeland. The study seeks to analyze the relationship between nature and man, in which the poet's vision was manifested. The study highlighted, through its topics related to women and the homeland, the depth of the connection between the poet and nature. The study confirms the importance of nature in Abu Madi's poetry as an idea that expresses the intellectual and psychological dimensions with which his poems were mixed and expressed. The current study shows the image of nature and its connection with man in his perceptions and ideas.

Key Words: Nature. Woman. Homeland. Abu Madi

مقدمة

يهدف هذا البحث إلى دراسة صورة الطبيعة في شعر إيليا أبو ماضي وعلاقتها بالمرأة والوطن في شعر إيليا أبو ماضي. فأبو ماضي شاعر مهجري رومانسي يرى الطبيعة عنصرًا تجريبيًا فكريًا وتصويريًا؛ لأنّه يحس بالطبيعة كنسق وجودي يبلا عن ذاته وأفكاره. ويلاحظ الدارس لشعره أنّ الطبيعة تمتاز بحضور واسع في مجمل قصائده، وأنها لا تلزم شكلًا واحدًا يعبر عن الصورة الجمالية بل تدخل في تركيب الموضوعات والأفكار والقضايا التي يعبر عنها الشاعر.

ويرى الباحث أنّ صورة الطبيعة ذات صلة وثيقة بالإنسان، فيجد فيها نماذج حية تتفاعل في صورتها وتصويرها كالمرأة والوطن. حيث إنّ صورة المرأة أقرب إلى الطبيعة النموذج في كل أحوالها، وهي الجانب الإنساني المتجانس مع الطبيعة إما بصورتها الممتزجة بها أو صورة الطبيعة ذات البُعد الإنساني عبر أنسنة الطبيعة.

ويبرز الوطن مع صورة الطبيعة للعلاقة الاعتبارية بين الإنسان والوطن أو الطبيعة. وقد اتصلت الطبيعة بالمكان/الوطن كمؤثر نفسي وفكري في وصف اهتمام الشاعر بالطبيعة مع علاقتها بالمرأة والوطن. وفي ظل هذه العلاقات بين الطبيعة والإنسان فإنّ البحث يهدف إلى الكشف عن تجلياتها في النص الشعري عند إيليا أبو ماضي. ولتحقيق هذا الهدف فإنّ البحث اتبع المنهج الوصفي التحليلي ووضع خطة تقوم على مبحثين اثنين درسا الطبيعة والمرأة والطبيعة والوطن في شعر إيليا أبو ماضي.

وتنبع أهمية البحث من خلال اهتمامه بعنصر الطبيعة في شعر إيليا أبو ماضي، حيث إنّ الطبيعة –كما أشرنا سابقًا– ذات حضور كثيف في شعره، وفي تعبر أيضًا عن نظرة الشاعر إلى الحياة حيث إنّ فلسفة الحياة عنده تشير عبر تصوراته المقتبسة من الطبيعة.

ويحاول البحث أن يجيب عن مجموعة من الأسئلة، هي:

- **ما العلاقة بين الطبيعة والمرأة في شعر إيليا أبو ماضي؟**
- **ما العلاقة بين الطبيعة والوطن في شعر إيليا أبو ماضي؟**

ويرى الباحث أن موضوع الطبيعة ذا صلة كثيفة الدلالة في شعر إيليا أبو ماضي يحتاج إلى عمق في البحث والكشف عن صورها واتجاهاتها في شعره.

تمهيد

تتنوع المؤثرات في نفوس الأدباء، فمنهم من يستلهم مادته من التاريخ، أو يتأثر إبداعه بالحياة الدينية، أو الحياة اليومية. وتُعدّ الطبيعة أهم ما يستحضره الأديب في نصه؛ لأنّها قطعة شفافة في تعبيرها عن الذات، وتطلق يد الإبداع للخيال؛ لإقامة الروابط بين الطبيعة والأديب.

وبرزت الطبيعة كموضوع رئيسي في الشعر العربي، واهتم بها الشعراء فوصفوها وجسدوا ما يرونه بها. وشعر الطبيعة أقرب إلى المحاكاة والتشبيه، حيث يرى سيد نوفل أنّ شعر الطبيعة لم يصدر في بداياته عن الملاحظة الذاتية والشعور، بل صدر عن تقليد وتخيل[1] ثم تطور شعر الطبيعة؛ ليكون مصدرًا من مصادر الشعر يعبر عن ذات المبدع ومشاعره الذاتية وأحواله النفسية والاجتماعية.

وتُعدّ الطبيعة عند شعراء المهجر في العصر الحديث من أبرز ما يلهمهم ويمد أشعارهم بالصور الغنية بالخيال ولا تخفى قدرتهم على التصوير ونسج الخيال؛ لأنّ هذه الطائفة امتلأت شوقًا وحنينًا لمراتع الصبا قبل الهجرة في طبيعة ريفية أثرت في نفوسهم وفي أشعارهم.

ويرى عيسى الناعوري أنّ " أدباء المهجر جميعهم من أخلص أبناء الطبيعة وعشاقها؛ فهم عميقو الإحساس بها، عميقو الحب لها والاتصال بها، يرون في كل ما فيها أشياء حية، تحب وتكره، تسعد وتشقى، تفرح وتحزن، وترخو وتخيب، لذلك يناجونها، ويستلهمونها، ويتمثلون بها، ويبثونها آمال قلوبهم وآلامها، وأشواق نفوسهم وحيرتها وهي توحي إليهم بالحنين إذ تذكرهم بما كانوا يجدونه من جمالها الفتان في ربوع بلادهم، وتوحي إليهم بالتأمل العميق في أسرارها، وما أبدع الله فيها من معجزات تحار فيها العقول"[2].

وإيليا أبو ماضي شاعر مهجري تأثر بالطبيعة حتى أنه يمكننا أن نصفه شاعر الطبيعة. إذ يكثر من استحضارها في أشعاره التي تمتاز بروحها الإنسانية وعواطفها الصادقة وحكمتها الدقيقة ولعل أبرز ما يحبب شعره إلى النفوس "ثلاث نواحٍ: الأولى:

---

[1] انظر: نوفل، سيد، شعر الطبيعة في الأدب العربي، مطبعة مصر للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 1945م، ص9.

[2] الناعوري، عيسى، أدب المهجر، دار المعارف للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 1959م، ص98.

ناحيته الإنسانية، والثانية: دعوته إلى محبة الحياة، والثالثة: استلهامه الطبيعة في شعره؛ مما يلون شعره بأجمل الألوان وأصفاها، ويرسم فيه أبرع الصور وأنقاها"[1].

ويجد القارئ في شعره الإنسانية والحكمة متمثلة في الطبيعة التي قوامها عناصرها الحية والجامدة تتسرب إلى صوره ومعانيه، وقد أبدع في تكوين شعر خاص بالطبيعة ينتمي إلى الذات والخيال وليس مجرد المحاكاة. ويرى القارئ لشعره، أن أفكاره وتعليلاته متأثرة بمفهومه الخاص للطبيعة.

ويدرس هذا البحث صورة الطبيعة والإنسان عند إيليا أبو ماضي التي تصور علاقات الإنسان ضمن محوري المرأة والوطن ؛ لتقديم الدليل على انتماء الشاعر للطبيعة وإخلاصه في استحضارها، واستلهامه لعناصرها في تجربته الشعرية في مختلف أشكالها.

المبحث الأول

الطبيعة والمرأة في شعر إيليا أبو ماضي

اقترن الشعراء بالمرأة، وكتبوا أشعارهم فيها في موضوعات مختلفة. وقد شكلت المرأة جوهرًا أدبيًا، وقضية محورية في الشعر العربي. ووصف الشعراء جمال المرأة، وجعلوه رمزًا من رموزهم، وتطرقوا لمكانة المرأة وقيمتها في المجتمع؛ بوصفها المحور الثاني المكون للحياة. وإننا نرى أن الكم من الأشعار والدراسات حول الموضوع انطلاقًا من العصر الجاهلي إلى عصرنا الراهن[2] يؤكد أهمية مكانة المرأة في الشعر العربي. وصورة المرأة ذات صلة وثيقة بالطبيعة؛ لأنّ العلاقة بين المرأة والطبيعة هي علاقة الخصب والجمال والعطاء؛ لذلك قصد الشعراء إلى وصف المرأة بأوصاف مستقاة من الطبيعة؛ فجعلوها آية لجمال الطبيعة، وصورة لنماذج الكائنات الحية الجميلة فيها.

وصوّر الشعراء المرأة بصور تتفاوت من زاوية النظر، والبعد النفسي، وطغت صورة المرأة الجميلة وأوصافها على الشعر العربي في القديم والحديث. وأصبح الغزل من أشهر

---

[1] المرجع السابق، ص375.

[2] انظر: الحوفي، أحمد، المرأة في الشعر الجاهلي، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1963م. وانظر: السيد، محمود، المرأة في وجدان الشاعر العربي، دار المعارف للنشر والتوزيع، الإسكندرية، مصر، ط1، 1995م.

الموضوعات في الشعر العربي. وشكلت المرأة أهم مقومات موضوع الغزل[1] عند الشعراء العرب، واتسم الشعر المهجري بربط المرأة بالطبيعة كنموذج للجمال والعطاء والحياة. فالخصب عند المرأة جزء من خصب الطبيعة، وجمالها، ودلالاتها على استمرارية الحياة. وتبدو النزعة الرومانسية في الشعر العربي المعاصر من أكثر ما أعطى الطبيعة مكانة في الحضور الشعري؛ لهروب الرومانسيين نحو الطبيعة؛ ولذلك نرى ربطًا قويًا بين صورة الطبيعة والمرأة في أشعارهم كما يمثلها شعراء المهجر وإيليا أبو ماضي من أبرز أولئك الشعراء الذين استلهموا صورة الطبيعة في المرأة وصفًا وتعبيرًا.

وفي الحقيقة نرى أن موقف الشعراء من المرأة لم يكن موقفًا واحدًا محددًا يوصف جمالها أو التغزل بها. فهناك من الشعراء من وصف المرأة كرمز للجمال الحسي أو المعنوي، وهناك من يتخذها رمزًا للتعبير عن قضايا عامة فتصويرهم لها يقع حسب الخلفية النفسية والاجتماعية والفكرية للشاعر. فالمرأة قد تكون غانية مبتذلة أو رمزًا للطهر والعفاف، أو عدوًا غادرًا، وهذه التصورات نتيجة للعلاقة التي تجمع الرجل والمرأة وتصورات الرجل عن المرأة التي تتكون مع مراحل تطور شخصيته.

وتحاكي صورة المرأة الطبيعة في تمثلها عند إيليا أبو ماضي، فهي ليست حالة منفرد وإنما يتتوج جمالها بجمال الطبيعة بصورة متبادلة بين المرأة كالنموذج للجمال والخصب والطبيعة كنموذج للجمال والعطاء. وقد برزت صورة المرأة المستمدة من الطبيعة عند الشعراء ومثل ذلك أبو ماضي في تجليات صورتها المستمدة من الطبيعة من جانب والتي تعدها محاكاة لها من جانب آخر فالمرأة والطبيعة عنوان للجمال.

"والمرأة في المجتمع تشكل حجر الزاوية فيه، ومسؤوليتها في بناء المجتمع وتغييره والارتقاء به وتأثيرها في سلوكه وتوجّهاته مسؤولية جسيمة ، منذ أن يتخلّق وليدها في رحمها إلى أن تضعه، فتسكب في سمعه هدهدات التربية وأبجديات المعرفة ، حتى إذا شبّ عن الطوق وصار طفلاً شكّلته بتوجيهاتها وممارساتها السلوكية وقيمها المبدئية"[2]، فهي كالطبيعة التي تحتضن الإنسان وتشكل هويته، وتكون صورته. فالمرأة تشترك مع الطبيعة في صقل ذوق الإنسان ونظرته إلى الجمال.

---

[1] انظر: بكار، يوسف، اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري، دار المعارف للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 1971م، ص 13-20.

[2] الغول، عطية، المرأة في العصور العباسية، دار الجنان للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، الأردن، ط1، 2015م، ص3.

والمرأة عند إيليا أبو ماضي من المواضيع الكبيرة في شعره، فالجانب الإنساني في شعره على صلة وثيقة بما يتكون منه المجتمع الإنساني. وهذا يعني أن المرأة في قصائده ذات حضور واقعي رمزي يختلط بالطبيعة التي امتدت في شعره، وتناغمت معها قضايا الإنسان في مختلف أوجهها صعودًا وهبوطًا.

ويتغزل إيليا أبو ماضي بمقلتي امرأة وكأنهما جزء من الطبيعة التي يراها. فالعينان يتدفق منهما سحر الهوى كتدفق النور من نجمتين. وهذا النور لا يمكن أن يدفعه، فقوته أضعف من قوة النور الساطع بين العينين. ويوظف الطبيعة؛ لتدل على جمال المرأة فيستحضر نور النجوم اللامعة يوازي به نور العينين في شدة سطوعها، وجمال النجمتين في سحرهما وحسنهما وإذا ما يرى الشاعر أن النجمتين مصدران للنور فإنه يرى في عينيها مصدرًا للهوى [1]:

رَأَيــتُ في عَينَيــكِ سِــحرَ الهَــوى مُنــدَفِقاً كَــالنورِ مِــن نَجمَتَيــن
فَبِــتُّ لا أَقــوى عَلــى دَفعِــهِ مَــن رَدَّ عَنــهُ عارِضــاً بِاليَــدَين
يــا جَنَّــةَ الحُــبِّ وَدُنيــا المُنــى مــا خِلــتُني أَلقــاكِ في مُقلَتَيــن

وتبدو المرأة كقوة خارقة من الطبيعة. ويصف تلك القوة بالسحر والسطوع أي أنها تذهب باللب والبصر. وتأسر العقل كما تأسر النظر. فالنور يتسلل كنور نجمتين متدفقًا من عيني المرأة الساحرة ويستغرب الشاعر من أن يجد بعد هذا النور المتدفق مقلتين يمكنه أن ينظر إليهما، فتطغى بذلك صورة المرأة على صورة الطبيعة، فيعلي من شأن المرأة ويسمو بها كأنها جوهر الوجود.

والتقت صورة الطبيعة بالمرأة ليعبر اللقاء عن كثافة الصورة الطبيعية في شعر إيليا أبو ماضي. فالجمال في المرأة قسم من أقسام الجمال في الطبيعة التي يصور سحرها وانعكاسها في المرأة وفي عينيها الساطعتين كنور متدفق من نجمتين،" كانت المرأة وما زالت مثالًا لذلك الجمال المادي والروحي استهوى الشعراء، فهي النصف الجمالي الذي يحمل في قلبه رحيق الحياة وسلسبيل المحبة" [2].

---

[1] أبو ماضي، إيليا، الأعمال الشعرية الكاملة (جمع وتقديم د. عبد الكريم الأشتر)، مؤسسة عبد العزيز بابطين، الكويت، ط1، 2008م، ص 934.

[2] الشابي، أبو القاسم، الخيال الشعري عند العرب، كلمات عربية للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط2، د.ت، ص69.

ويستمد أبو ماضي صورة أخرى من الطبيعة يوضح فيها قوة حضور المرأة، وجمالها الذي لا يقاومه المرء. ويترك القارئ أمام صورة حركية تعبر عن ضعف القوة البدنية للإنسان أمام قوى أخرى من الطبيعة. فاليدان البشريتان بالرغم من قوتهما لا يمكنهما مواجهة عارض السماء والمطر باليدين. وهنا إشارة بديعة من الشاعر استخدام فيها الإقناع العقلي التمثيلي للموقف والتأثير النفسي الذي يكشف عن ضعف الإنسان أمام قوى الطبيعة، وبالتالي فإن الشاعر يريد أن يعبر عن قوة المرأة بقوة الطبيعة التي لا تسعفه قوته في مواجهتها. فقوة الطبيعة تكثيف يدل على قوة المرأة. وتخفي الطبيعة قوتها وتبدو آثارها في المكان والإنسان، والمرأة مثلها قد يرى فيها الإنسان الضعف إلا أنها قادرة على تدميره فآثارها تظهر في ضعفه في مقاومتها.

ويتصور الشاعر لقاء المرأة وفراقها باقتباسات من صور الطبيعة. فالوصل الجميل يكون بعد فراق وابتعاد كجمال طلوع الشمس بعد الظلام. وحب النساء مرض لا شفاء منه إلا بلقائهن، والريح لولا الغرام لما سكنت ولا خفيت. وهذه الصورة المتعددة تكشف عن تعلق الشاعر بالطبيعة، وتفكيره العميق بها فالشاعر عاشق للطبيعة كعشقه للمرأة التي يتغنى بهواها. ويعلل حبه للوصل وصبره على البعد بالاشتياق الذي تعلمه من حياته في الطبيعة [1]:

صَبراً عَلى هَجرِها إِن كانَ يُرضيها ... غَيرُ المَليحَةِ مَملولٌ تَجَنّيها

فَالوَصلُ أَجمَلُهُ ما كانَ بَعدَ نَوىً ... وَالشَمسُ بَعدَ الدُجى أَشهى لِرائيها

فَاِحذَر مِنَ الحُبِّ إِنَّ الريحَ ما خَفِيَت ... لَولا غَرامٌ عَظيمٌ مُختَفٍ فيها

يَمضي الصَفاءُ وَيَبقى بَعدَهُ أَثَرٌ ... في النَفسِ يُؤلِمُها طَوراً وَيُشجيها

مَرَّت لَيالٍ بِنا ما كانَ أَجمَلُها ... تَمَّت فَما شائَها إِلّا تَلاشيها

تِلكَ اللَيالي لا أَرجو تَذَكُّرُها ... خَوفَ العَناءِ وَلا أَخشى تَناسيها

وينظر الشاعر إلى العلاقة بالمرأة كجزء من العلاقة بالطبيعة. فيصبر نفسه على تجني المرأة الجميلة عليه، ويصبر على بعدها وهجرها له، ويشفع لذاك التجني وهذا الهجر بما في الطبيعة من هجر ووصل، فالشمس تغيب وتشرق ولولا هذه الدورة بين الخفاء والتجلي لما بدت الشمس أجمل لمن يشاهدها ويراها، إننا نرى المحاكاة الدقيقة

[1] أبو ماضي، إيليا، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 153.

لتصوير المرأة في صدها وهجرانها بعناصر مخصوصة من الطبيعة، وتشكل العلاقة مع المرأة صورة لعلاقة الإنسان بالطبيعة، حيث إنّ الإطار العام بين المرأة والطبيعة يتحد في نظرة الإنسان إليهما. فيجد أنّ التكامل بينهما سببه العنصر الجمالي الذي يراه الشاعر متمثلًا في المرأة ومتجسدًا في الطبيعة كرمز للجمال ونموذج للحياة الذي تنشره المرأة في الطبيعة.

كما يشير أيضًا إلى طبيعة الأشياء التي لا تدوم كالعلاقة الزمنية في الطبيعة التي لا تدوم على حال من الأحوال الثابتة. فالصفاء يمضي كما تمضي أيام الربيع والصيف. وتمر الليالي الجميلة ويتلاشى وتبقى آثارها في الذاكرة تثير الذكرى، وتهيج العواطف. ولا يخفى ما للطبيعة من أثر في تكوين الرؤية الفنية لإيليا أبو ماضي، وتتجلى العلاقة بين الطبيعة والزمن حيث يكون الزمن شاهدًا على التغيرات التي تحدث في الطبيعة بمرور الليالي التي تتعاقب على الأحداث:

مَـرَّت لَيـالٍ بِنـا مـا كـانَ أَجمَلُهـا ... تَمَّـت فَمـا شـانَها إِلّـا تَلاشـيها

تِلـكَ اللَيـالي لا أَرجـو تَـذَكُّرُها ... خَـوفَ العَنـاءِ وَلا أَخشـى تَناسـيها

وتُعد المرأة محورًا تدور حوله سعادة العاشقين أو شقاوتهم. ويشير أبو ماضي إلى أن السعادة غير دائمة، فالليالي الجميلة ترد فيها ليالي الهجر فتتغير الملذات، وتعود الذاكرة إلى الأيام الجميلة بمرارة فتصبح الذكرى قطعة من عذاب العاشقين. فالمرأة كالطبيعة في تغيّر السرور في وصلها وهجرها، فكما أنّ الأيام لا يدوم صفاؤها في الطبيعة فإن المرأة كذلك لا يدوم الهناء معها، لأنّ الخوف من فقدان المرأة يسبب الأسى والحزن لمجرد توقعه.

فالإحساس بالجمال نوع من أنواع العذاب الذي يتعذب به المحب بغمرة السعادة في عذابه أحيانًا ويهوى النسيان أحيانًا أخرى. ويستذكر الشاعر وقتًا محددًا في الطبيعة التي تبدو كمخلص للشاعر يهرب إليه متى ما أحس بالضيق والخوف. وتتسم الليالي بجمال السهر فيها عندما يكون الإنسان قريبًا ممن يحب. ويصور أبو ماضي هنا شعور الإنسان بالأمان في اقترابه ممن يحب، كما أنّ الليالي تدل على فصلي الربيع والصيف حيث حب السهر والاستمتاع بالطبيعة الساحرة ليلًا فيهما، ويمثل هذا البعد الزماني لليالي الشطر الأول من حياة العاشق الذي تدهشه الدنيا بصحبة من أحبهم. وتمر الليالي في الخريف والشتاء ببرد قارس يخلد فيه الناس إلى النوم والدفء إلا العاشق الذي يسهر في كل وقت

وحين؛ لتمثل الطبيعة السرور والحزن للعاشق في بُعدها الزمني من جمال الصيف والربيع إلى شدتها خريفًا وشتاءً.

ويصور إيليا أبو ماضي امرأة جميلة استحوذت على لبه بحسنها الفتان، وجمالها الساحر، ويستلهم ما في الطبيعة من علامات الجمال ويوظفها كاشفًا عن جمال المرأة الذي يشبه جمال الطبيعة الفاتنة التي يعشقها الشاعر بدلالة حضورها الكثيف في شعره صورًا وألفاظًا ودلالات، ويجري الشاعر حوارًا دافئًا مع الطبيعة يؤنس الحوار لارتباط المرأة بالطبيعة ارتباطًا شفيفًا تمتزج فيه المرأة بصور الطبيعة. وللمرأة صورة غريبة تضيع البصر الذي يرى فيه العاشق المرأة، فحضورها كجمال الطبيعة الخلابة يطغى على كل شيء[1]:

وَناهِدٍ حَجَبَت عَن كُلِّ ذي بَصَرٍ ... حَشاشَتي خِدرُها وَالقَلبُ ناديها
وَفي الكَواكِبِ جُزءٌ مِن مَحاسِنِها ... وَفي الجَآذِرِ[2] جُزءٌ مِن مَعانيها
يَمَّمتُها وَنُجومُ الأُفقِ تَلحَظُني ... في السَيرِ شَذراً كَأَنّي مِن أَعاديها
أَسري إِلَيها وَجُنحُ اللَيلِ مُضطَرِبٌ ... كَأَنَّهُ مُشفِقٌ أَن لا أُلاقيها
وَالشَوقُ يَدفَعُني وَالخَوفُ يَدفَعُني ... هَذا إِلَيها وَهَذا عَن مَغانيها
أَطوي الدياجي وَتَطويني عَلى جَزَعٍ ... تَخشى اِفتِضاحي وَأَخشى الصُبحَ يَطويها
قامَت تُصافِحُني وَالرِدفُ يَمنَعُها ... وَالوَجدُ يَدفَعُها وَالقَدُّ يَثنيها
دُهِشتُ حَتّى كَأَنّي لَم أَرَها ... وَكِدتُ وَاللَهِ أَنسى أَن أُحَيِّيها

وتدل صورة المرأة في الطبيعة على أنّ الشاعر يتعامل مع نموذج جمالي من نماذج الطبيعة. فهو يصرّح بالغزل واصفًا حالة الطبيعة الممتزجة به امتزاجًا عضويًا لا ينفصل عن رؤيته للمرأة. والشاعر الرومانسي يدور في أجواء الطبيعة ولا يخرج عنها، فيدير حواره معها دون أن تعلم أنه يحاورها فقد سرقت لبه كنور مشع يكاد يذهب ببصره، فمن شدة تعلقه بها وبالطبيعة رآها وهي تقوم لمصافحته كشجرة وارفة الظلال تتحرك جذلانة تتهادى أعضائها وأوراقها بجسد امتزج بالطبيعة وأصبح جزءًا منه.

[1] أبو ماضي، إيليا، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 154

[2] الجوذر: ولد البقرة الوحشية، عيناه جميلتان.

إنّ الطبيعة في لوحة المرأة ما يؤكد على الالتحام بينها وبين الطبيعة فهي على علاقة جزئية في تكوينها من خلال العلاقة التبادلية بالصورة المعاكسة المقلوبة التي تحيل جمال الكواكب من جمال المرأة. فالمرأة والطبيعة شيء واحد لا ينفصل، فهي تجمع محاسن الأنوار الساطعة في الدجى، ولها جمال الظباء، التي تسابق الشعراء في تمثيل الجميلات بعيونهن وجمالهن وخفة حركتهن بصورة الظبية الجميلة. ويتحرك العاشق إلى محبوبته مندفعًا نحوها، وخائفًا مترقبًا من الوشاة، ويرى أن كل شيء يتبعه ويراقبه حتى الطبيعة تراقبه بعيون نجومها في ظلمة الليل، وقد امتزجت المرأة بالطبيعة وبالشاعر في لوحة يصعب الفصل بين مكوناتها، فالمرأة صورة للطبيعة والطبيعة انعكاس لما في المرأة من جمال والشاعر مفتون بهذه الصورة التي يمتزج فيها الحضور الخصيب للمرأة بجمال الطبيعة المعطاءة.

يَمَّمتُها وَنُجومُ الأُفقِ تَلحَظُني ... في السَيرِ شَذَراً كَأَنّي مِن أَعاديها
كادَت تَسّاقَطُ غَيظاً عِندَما عَلِمَت ... أَنّي أَؤُمُّ الَّتي بِالنَفسِ أَفديها
أَسري إِلَيها وَجُنحُ اللَيلِ مُضطَرِبٌ ... كَأَنَّهُ مُشفِقٌ أَن لا أُلاقيها
وَالشَوقُ يَدفَعُني وَالخَوفُ يَدفَعُني ... هَذا إِلَيها وَهَذا عَن مَغانيها
أَطوي الدياجي وَتَطويني عَلى جَزَعٍ ... تَخشى اِفتِضاحي وَأَخشى الصُبحَ يَطويها

وانقسمت إلى فريقين فريق يتابع سير العاشق إلى محبوبته كالوشاة إذ إن نجوم الليل تلحظه شزرًا كأنه عدو لها، واشتد غيظها عندما علمت بسيره نحو محبوبته. وفريق آخر يتمثل في جنح الليل الذي يظلم ليتستر على سيره، ويضطرب خوفًا من عدم إتمام اللقاء بينهما، وإنّ اضطراب العاشق في سيره يراه في اضطراب الطبيعة من حوله. فقد استطاع أن ينقل خوفه وقلقه وترقبه إلى عناصر الطبيعة فقسمها إلى فريقين فريق يترقب خطواته وآخر يتستر عليها. وهذا يدل على تأثره بالطبيعة التي تعكس مشاعره وأحاسيسه واضطرابه النفسي على عناصرها ومظاهرها. ويصف أبو ماضي لقاءه معها وصفًا حسيًا فيرسمها كأنها لوحة أو تمثال نحتته الطبيعة، وتشمل اللوحة اللون والملمس والحركة، وكل ذلك يمتزج بالذات الشاعرة، فتصبح المفردات جزءاً منه، وتُلبَّس بسمات

الإنسان بشكل يذكر بالاتحاد بين الطبيعة والإنسان، اتحادًا لا يمكن فصله؛ مما يدل على الاتحاد في تصوير الشاعر بين الذات والطبيعة[1]:

هُنـاكَ أَلقَيـتُ رَحلـي وَانتَحَيـتُ إِلى ... خودٍ[2] يَرى الدُميَـةَ الحَسناءَ رائيها

بـيضٌ تَرائِبُهـا[3] سـودٌ ذَوائِبُهـا ... زُجٌّ[4] حَواجِبُهـا كُحـلٌ مَآقيهـا

نُهودُهـا مِـن ثَنايـا الثَـوبِ بـارِزَةٌ ... كَأَنَّهـا تَشـتَكي مِمّـا يُواريهـا

وَالثَوبُ قَد ضاقَ عَن إِخفائِها فَنَبا ... عَنـها فَيـا لَيـتَني بُـردٌ لِأَحميهـا

وَتَحـتَ ذَلِـكَ خَصـرٌ يَسـتَقِلُّ بِـهِ ... دَعـصٌ[5] تُرَجرِجُ حَتّـى كـادَ يُلقيهـا

قامَـت تُصـافِحُني وَالـرِدفُ يَمنَعُهـا ... وَالوَجـدُ يَـدفَعُها وَالقَـدُّ يَثنيهـا

دُهِشـتُ حَتّـى كَـأَنّي لَـم أَرَهـا ... وَكِـدتُ وَاللَـهِ أَنسـى أَن أُحَيِّهـا

يقف القارئ أمام لوحة فنية لمرأة من ربّات الجمال في الطبيعة. فالوصف يفوق دلالة الكلمة على الجمال الحسي المفعم بالحياة؛ ليعبر عن حضور الطبيعة في نشوة الحياة تتداخل فيها ألوان الطبيعة، وأشكالها الجميلة التي تغطي جسد الحسناء، ويبين هذا الوصف الحسي الدقيق للقارئ أنّ الشاعر قد استحوذ على تفكيره جمال فتان يسترخص في سبيله المخاطر التي قد يتعرض إليها، وأن الحذر في الوصول إليها ليس مبالغًا فيه، فجمالها يفوق كل جهد يبذله، وكل طريق خطر يسلك من أجل الوصول إلى محبوبته التي يذهله جمالها، وكأنها منحوتة نحتتها الطبيعة الخلابة.

إنّ المرأة تمنح عناصر الطبيعة شكلًا إنسانيًا من خلال أنسنة أفعال الطبيعة بالمرأة التي تعد مكونًا من مكوناتها. فالعلاقة التبادلية بين المرأة والطبيعة ، وهذه العلاقة مصدر أنس للشاعر، وتدفعه لاستحضار الروح الإنسانية والخصب والجمال من اقتران المرأة بالطبيعة. واستمد الشاعر من عناصر الطبيعة التعبير عن نظرتين الأولى نظرة الوشاة من خلال النجوم التي تضيء طريقه متناقضة مع ظلمة الليل التي تسعى إلى إخفاء سيره إلى محبوبته؛ ليكشف وجود الطبيعة في الشكل والمضمون، فالحياة بذاتها ووجودها

---

[1] أبو ماضي، إيليا، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 155.

[2] خود: الشابة الحسناء.

[3] ترائبها: موضع القلادة من الصدر (المفرد: تريبة).

[4] زججت المرأة حواجبها: دققتها وطولتها.

[5] دعص: الرمل.

بتوافقها وتضادها تشبه الطبيعة عند إيليا أبو ماضي. وتوفر طريقته في الانسجام مع الطبيعة تصورًا فكريًا، وشعورًا إنسانيًا مكثفًا في استحضاره للنجوم والدجى ما يحدث للعاشق من مراقبة ينقسم فيها المراقبون إلى فريقين فريق يتستر على العاشق مثل الدجى وفريق كالنجوم يفضح سيرهم ويراقب خطواتهم. فطبائع البشر تماثل أنواعَ الطبيعة التي يعرفها أبو ماضي، ويصورها في شعره.

ويرجع إيليا أبو ماضي إلى الطبيعة في تصوير محبوبته التي تعلق بها، ويوظف عناصر الجمال في الطبيعة ليوجد أوجه التشابه بين المحبوبة والطبيعة. فالمرأة الجميلة هي طبيعة متحركة في تقدير الشاعر الذي يفكر في الطبيعة كما يفكر في المرأة ذاتها، إنّه يرى في المرأة صورة للهلال في حاجبيها وجبينها في وصف راقٍ لمشهد من مشاهد الطبيعة الجميلة، وبعد أن يبدأ بالطبيعة يغامر بالوصف ويبدع في الغزل. والمرأة هنا محفوفة بالمخاطر، فهو كمن يسير أمام عرين الأسد ليحظى بمقابلتها ولقائها، وبالتالي فإنه يتمثل خوض سبيل الموت للقاء تلك الجميلة التي يحبها. فكأنه يريد أن يكتشف أرضًا جديدة محفوفة بالمخاطر، فيسير بكل ما أوتي من قوة للوصول إلى مبتغاه. ويستلهم الشاعر صعوبة وصل محبوبته من الطبيعة الخطرة التي تحيط بالأرض الجديدة، حيث عليه أن يتجاوز لقاء أسد في عرينه. فالخطورة تعني حجم المغامرة الكبيرة التي يقحم نفسه فيها من أجل تلك الحسناء التي تشبه الطبيعة الجميلة [1]:

كَلَفَت بِها نَفسي وَدونَ وُصولِها وَصلُ المَنون وَثَمَّ لَيثُ عَرينِ

حَسناءُ أَضحى كُلُّ حُسنٍ دونَها وَلِذاكَ عُشّاقُ المَحاسِنِ دوني

وتدفعه محاسنها إلى المخاطرة بنفسه من أجل وصالها، وقد يدفع حياته ثمنًا لذلك. ويرى أن حسنها وجمالها يستحق تلك المغامرة. والعاشق يخشى على محبوبته وهي تخشى على نفسها من اللقاء. ويسيطر على المرأة الشعور بالخوف فهي كغزال يخشى أقل حركة. إذ تخاف من لباسها أن يبوح بسرها. وتخشى من أنفاسها أو تنهيدة تخرج من صدرها. وخوف الحسناء المبالغ فيه يدل على المشقة التي يواجهها العاشق في كل لقاء، فهو بعد أن غامر بحياته، ونازل مخاطر الطبيعة فاللقاء بينهما لن يدوم طويلًا.

قَد رَوِّعَت حَتّى لَتَخشى بُردَها مِن أَن يَبوحَ بِسِرِّها المَكنون

[1] أبو ماضي، إيليا، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 159.

وَتُريبُها أَنفاسُها وَيُخيفُها عِندَ اللِقاءِ تَنَهُّدُ المَحزون

واللقاء الذي يكون على خوف ووجل لا يسعد به العاشق حيث يغلب عليه الفزع والترقب، ووجل هذه المحبوبة مدعاة إلى أن تحرم العاشق من لقائها، فهي بذلك تكون صورة تحاكي الطبيعة في صعوبة الوصول إليها فهي كمن يسكن في عرين الأسد تحتاج إلى مغامرة محفوفة بالموت، وهي أيضًا موصوفة بالجبن والفزع، أي أنّها كظبية تخشى أدنى حركة من حولها فتهرب وفي كلتا الحالتين فإن العاشق لا يستطيع أن يحظى بما يريده من وصل ولقاء.

هَجَرَت فَكُلُّ دَقيقَةٍ مِن هَجرِها عِندي تُعَدُّ بِأَشهُرٍ وَسِنينِ

يا هَذِهِ لا تَجحَدي حَقّ فَقَد أَصلَيتِ قَلبي بِالنَوى فَصِليني

أَطلَقتِ دَمعاً كانَ قَبلُ مُقَيَّداً وَسَجَنتِ قَلباً كانَ غَيرَ سَجينِ

أَشبَهتِ لَيلى العامِرِيَّةَ فَاِكتُمي خَبَرَ الَّذي قَد صارَ كَالمَجنون

إنها امرأة تخشى ثوبها وأنفاسها، وهذه صفات محببة للشاعر، فقد وجد أن النوى والهجر ليس لكرهها له دائمًا خوفًا على نفسها فازداد تعلقًا بها، ويخبرها بما يقع فيه من أشواق وأحزان ليبعدها عنه، ويذكرها بدموعه الحزينة، وقلبه السجين المرتهن لها. وأصبح مجنونًا متيمًا بها كمجنون ليلى العامرية الذي اشتهر بين الناس بحب ليلى يحاول أن يخفي جنون العشق عن الناس ويكشفه لمحبوبته.

ولم تغب الطبيعة عن صورة المرأة في شعر إيليا أبو ماضي فالشاعر متيم بالطبيعة كما هو عاشق للمرأة الجميلة الحسناء[1]:

سَفَرَت فَقُلتُ لَها أَهَذا كَوكَبٌ قالَت أَجَل وَأَينَ مِنّي الكَوكَبُ

وَتَبَسَّمَت فَرَأَيتُ رِئماً[2] ضاحِكاً عَن لُؤلُؤٍ لَكِنَّهُ لا يوهَبُ

وَتَمايَلَت فَالسَمهَرِيُّ[3] مُصَمِّمٌ وَرَنَت فَأَبصَرتُ السِهامَ تُصَوَّبُ

أَنشَبتُ أَلحاظي بِوَردِ خُدودِها لَمّا رَأَيتُ لِحاظَها بي تَنشُبُ

قَد كَلَّمَت قَلبي وَلَم تَرفُق بِهِ وَاللَحظُ لَو دَرَتِ المَليحَةُ مَخلَبُ

---

[1] أبو ماضي، إيليا، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 169.

[2] رئمًا: الظبي الخالص البياض.

[3] السمهري: الرمح.

بَيضـــاءُ ناصِـــعَةٌ كَـــأَنَّ جَبينَهـــا صُـــبحٌ وَطُرَّتَهـــا عَلَيـــهِ غَيهَـــبُ
يـــا طالَمـــا اِكتَسَـــبَ الحَريـــرُ مَلاحَـــةً مِنـــها وَيُكسِـــبُ غَيرَهـــا مـــا يَكسَـــبُ

فالمرأة التي أبدت أمامه حسنها أذهلته فلم يستطع أن يحدثها بشيء بسبب جمالها الأخاذ، ورأى أنها تشبه الجمال الموجود في الطبيعة، وهي مكون من مكونات الطبيعة، فتصبح مرادفة للإنسان؛ وهذه تقنية طريفة في الأنسنة. ولما رأى وجهها سألها (أهذا كوكب). ولما تبسمت رأى فيها صورة غزال ضاحك في غابة مخضرة ورأى لؤلؤًا نفيسًا لا تصل إليه يد الغواص. ولما تمايلت رآها رئمًا وضحكتها سهام تصوب إلى القلب وخدودها كالورد واللحظ كمخلب.

ثم يصورها بجمال الصبح وحلاوة الليل ورقة الحرير. و"تغنى الشعراء بالمرأة فهي اللحن الجميل الذي تستهل به القصائد وهي الكلمة السحرية التي تنفتح لها كنوز الشعراء" [1]، فالأوصاف من الطبيعة التي يأتي بها الشاعر فيعكسها على تصوراته ونظراته تشكل صورة المرأة الجميلة التي يريد. ومما لا شك فيه أن المرأة عند إيليا أبو ماضي شكل من أشكال الطبيعة التي يتغنى بها وبجمالها. والمرأة عنده نعمة في هذا الوجود وجمال كجمال الطبيعة " فهي للرجل أسمى المواطن من نفسه ورأيه ومشورته، ولحريّ بالقلم أن يقف دون وصفها خاشعاً متواضعاً"[2] يصفها بأجمل الأوصاف وأبدعها، والطبيعة عند إيليا أبو ماضي هي أسمى منازع الجمال.

وتتميز المرأة عند إيليا أبو ماضي بموضوعها الواقعي في بعض الأحيان، حيث تنبثق فكرته من تصوراته لما يحدث في واقع الحياة. ويذم بعض التصرفات التي تدل على التكبر والغرور بالجمال والحسن مما تنخدع به كثير من النساء، حيث يرى أن الجمال والحسن زهرة سوف تذبل. وهذه الصورة المستمدة من الطبيعة تعبر عن حكمة الشاعر، ونظرته الواقعية لما يدور حوله.

---

[1] الهاشمي، علي، المرأة في الشعر الجاهلي، دار الفكر للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط1، 1960م، ص88.

[2] عودة نعيم، أدب المرأة العربية: الشعر والنثر والحوار، دار غيداء للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، الأردن، ط1، 2015م، ص48.

ويصور الشاعر حال المرأة الحسناء المغرورة التي تريد أن تنفرد بالحسن وحدها، وأن تفوز بالغزل والمديح دون غيرها، فتهرع إلى المرآة دائمًا كلما سمعت عن حسن غيرها تحمل في قلبها الغيرة والحقد[1]:

أَقامَـــت لَـــدى مَرآتِهـــا تَتَأَمَّـــلُ عَلـــى غَفلَـــةٍ مِمَّـــن يَلـــومُ وَيَعـــذِلُ
وَبَـــينَ يَـــدَيها كُلَّمـــا يَنبَغـــي لِمَـــن يُصَـــوِّرُ أَشـــباحَ الـــوَرى وَيُمَثِّـــلُ
مِـــنَ الغيـــدِ تَقلـــي كُـــلَّ ذاتِ مَلاحَـــةٍ كَمـــا بـــاتَ يَقلـــي صـــاحِبَ المنـــالِ مُرمِـــلُ

إنّ دلالة الفعل الماضي (أقامت) تدل على طول المدة التي تقف فيها المرأة عند المرآة. والعنوان الذي سبق القصيدة (المرأة والمرآة) توافق صوتي ومحاسنة بين اللفظتين، مما يدل على التوافق بين المرأة والمرآة، والمرآة والاقتراب الدائم بينهما. ويصف الشاعر وقوف المرأة عند المرآة بأنه لا يكون أمام الناس في العلن، بل تتخذه مسلكًا تختفي فيه عن اللائمين والعذّال. وتنشأ الغيرة بين النساء على الحسن والجمال وأيًا كان مقدار جمال المرأة فإنها تريد لنفسها أن تكون أجمل من غيرها، فتغار من كل ذات ملاحة، وتحقد على كل من يمدح جمال غيرها[2]:

تَغـــارُ إِذا مـــا قيـــلَ تِلـــكَ مَليحَـــةٌ يَطيـــبُ بِهـــا لِلعاشِـــقينَ التَغَـــزُّلُ
فَتَحمَـــرُّ غَيظـــاً ثُـــمَّ تَحمَـــرُّ غَـــيرَةً كَـــأَنَّ بِهـــا حُمّـــى تَجـــيءُ وَتُقفِـــلُ
وَتُضـــمِرُ حِقـــداً لِلمُحَـــدِّثِ لَـــو دَرى بِـــهِ ذَلِـــكَ المِســـكينُ مـــا كـــادَ يَهـــزُلُ
أَثـــارَ عَلَيـــهِ حِقـــدَها غَـــيرَ عامِـــدٍ وَحِقـــدُ الغَـــواني صـــارِمٌ لا يَفُلُّـــلُ
فَلَـــو وَجَـــدَت يَومـــاً عَلـــى الـــدَهرِ غـــادَةً لَأَوشَـــكَ مِـــن غَلَوائِـــهِ يَتَحَـــوَّلُ

وتمثل الغيرة استجابة طبيعية لما يهدد بفقدان المحبة سواء كان هذا حقيقيًا أو متوهمًا، وتؤدي إلى شعور بالنفور والكراهية نحو الأشخاص، ويمتزج الغضب بالخوف في النمط الانفعالي المعروف بالغيرة، فالمرأة تخشى أن تفقد قيمتها التي تراها في حسنها وجمالها، ولكن هذه الصورة يستحيل أن تبقى مستمرة فكل شيء في الطبيعة والبيئة التي تحيط بالإنسان يدل على التبدل والتغير.

[1] أبو ماضي، إيليا، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 83.

[2] أبو ماضي، إيليا، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 83.

وتقارن المرأة جمالها بجمال غيرها؛ لذلك فإن كل حديث عن الجمال يثير المرأة، مما يشعرها بالغيرة تجاه كل امرأة توصف بالجمال. ويتعرض المادح إلى النفور والحقد من قبل المرأة. وتظهر صفات الغيظ على وجهها. فالحقد المضمر في قلبها تعلو حمرته على الوجه.

ويحذر إيليا أبو ماضي من حقد الغواني الصارم كالحديد القوي، ويشبه قوة الحقد بالطبيعة المصنوعة التي يعرف أثرها في الحديد، كما يصور عجب المرأة بنفسها بالطاووس المعروف بتكبره وخيلائه المشهور في الطبيعة، فالطبيعة تمتزج بلوحة تشترك فيها المرأة بقوتها التي تقتبسها من الطبيعة، فهي في قوتها كالطبيعة المادية المصنوعة من الحديد، في تكبرها كغرور الطاووس، فالطبيعة ممتزجة في التعبير عن المرأة عند إيليا أبو ماضي[1]:

أَثــارَ عَلَيــهِ حِقــدَها غَــيرَ عامِــدٍ وَحِقــدُ الغَــواني صــارِمٌ لا يَفلُــلُ
فَلَــو وَجَــدَت يَومــاً عَلــى الــدَهرِ غــادَةً لَأَوشَــكَ مِــن غَلَوائِــهِ يَتَحَــوَّلُ
فَتــاةٌ هِــيَ الطــاوُوسُ عُجبــاً وَذَيلُهــا وَلَــم يَــكُ ذَيــلاً شَــعرُها المُتَهَــدِّلُ
سَعَت لِاحتِكارِ الحُسنِ الحُسنِ فيها بِأَسرِهِ وَكَــم حاوَلَــت حَســناءُ مــا لا يُؤَمَّــلُ
وَتَجهَــلُ أَنَّ الحُســنَ لَــيسَ بِــدائِمٍ وَإِن هُــوَ إِلّــا زَهــرَةٌ سَــوفَ تَــذبُلُ

وتظهر الطبيعة في حكمة الشاعر حيث يشير إلى أن الغرور بالجمال غير دائم؛ لأنه سرعان ما يذبل كما هو الزهر في الطبيعة يصل إلى أعلى درجات الجمال ثم ما يلبث أن يمر الوقت ويذبل. فالمرأة التي تسعى إلى احتكار الحسن والمحافظة على جمالها تسعى إلى سراب لا يؤمل أن تحفظ جمالها دون أن يتعرض إلى التحول والتبدل.

فالحكمة تقتضي أن يبصر الإنسان ما يحدث أمامه، وأن يأخذ العبرة من التغييرات التي تصيب ما حوله فالطبيعة انعكاس لما يحدث مع الإنسان، فالإنسان يغره المنظر الجميل، ويبحث عن جمال الأشكال والجسوم، ويحذر الشاعر من أن كل تلك الجماليات سوف يسير عليها الزمن بأحواله وتغيراته، فالفتى الذي يغتر بالجمال سيفقده مع مرور الوقت. وأما الجمال الذي يدعي أسمى الفضائل فإنه جمال النفس والروح الذي يبقى ويدوم وينمو مع مرور الزمن. ونلاحظ هنا وجود نظرة مثالية ممتزجة بتجربة واقعية. أي ذات ملامح رومانسية مشغولة بالطبيعة، تهرب إليها في صورها وأسلوبها في التعبير.

[1] أبو ماضي، إيليا، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 83.

وشعراء المهجر عمومًا وإيليا أبو ماضي خصوصًا امتازوا بنظرتهم الرومانسية التي تمتزج بالطبيعة.

ولكن بعض النساء يغرهن الجمال العارض الذي يسعى إليه من أجل الحصول على المديح والإطراء، ويشير الشاعر إلى أن اكثر ما يحدث من اهتمام للغواني بجمالهن سببه الغيرة فأسماء تغار من الغيد الجميلات ولولا أن الغيرة من النساء والسعي إلى مديح العاشقين لترجلت بعض النساء ولما كان بينهن وبين الرجال من فرق.

ونفهم من وجهة نظر إيليا أبو ماضي أن الجمال ماثل في الجوهر، كجمال الطبيعة الذي يكون في ذاته؛ لأن الجمال والحسن في ظاهرهما عرضة لتغيير والتبدل. فالورد بعد انقضاء الربيع ومرور الصيف يذبل، وحسن الأجسام بعد مرور الزمن يتغير. فما كان جوهره جميلًا لن يتغير جوهره بتغير الزمن. ويصف أيضًا الخداع الذي يتغطى بالجمال المنمق الزائف عند بعض النساء، فجمالهن مخادع بسبب الغيرة وحب المديح والثناء، ولولا ذلك لكانت شبيهة بالرجال، وأما المنخدعون بها فإنهم لا يرونها إلا وهي منمقة بعد أن وقفت أمام مرآتها ترشدها إلى تزيين نفسها، ولا يعرفون شيئًا من حياتها المحجوبة عنهم.

اتصلت المرأة في شعر إيليا أبو ماضي بالطبيعة، حيث وصف جمالها وحسنها بأوصاف الطبيعة الفاتنة. وصوّر لقاء العشاق بأجواء من الطبيعة حيث إنّ عناصرها يشاركهم اللقاء حسدًا وسرورًا، فالطبيعة تمثل مختلف الأصناف والأجناس. واستلهم الشاعر موضوع غرور الغواني بجمالهن من الطبيعة النباتية التي يذبل فيها الورد، ويتغير فيها الحسن بعد مرور الزمن. فأبو ماضي شاعر الطبيعة بكل ما في الكلمة من معنى في فنه ورؤيته.

المبحث الثاني

الطبيعة والوطن في شعر إيليا أبو ماضي

يحتضن الوطن الإنسان، ويعيش فيه واقعه ويتطلع إلى أحلامه. وقضية الوطن من القضايا البارزة في الشعر العربي تتميز بحنين الشاعر إلى المكان. والطبيعة في الوطن تثير الإنسان أكثر من غيرها في أمكنة أخرى. فالنفوس مجبولة على حب الأوطان والأمكنة التي ينتمي إليها الإنسان. وقد عبّر العقاد عن قيمة الوطنية التي هي أكبر من كل مفقود ولا يساويها كل موجود[1].

وحب الوطن قيمة إنسانية عظيمة، تتجلى فيها عاطفة الإنسان الصادقة، كما أنّ الوطن صورة للطبيعة بكل ما فيه من عناصر مادية، ومظاهر إنسانية، ومكونات حية وجامدة. وقد ظهرت الطبيعة في شعر إيليا أبو ماضي بصورة تعبر عن جمال الطبيعة في لبنان من جهة، ومن جهة أخرى برز استغلال الطبيعة في تصوير الوطن من الناحية السياسية والاجتماعية وموقفه الإنساني من قضايا وطنه.

وقد مثلت الطبيعة دورًا في الكشف عن حنين الشاعر إلى المكان؛ فالطبيعة أداة واصفة للعاطفة الإنسانية المنتمية للمكان. وتنشط العواطف عند اجتماع حب المكان بعلاقة روحية. فأبو ماضي حينما يتحدث عن الشام فإنه يتصل بالمكان اتصالًا روحيًا؛ لذلك ليس بمستغرب أن يتمثل علاقته بأجواء الطبيعة[2]:

تَرَكتَ النَجَم مِثلَكَ مُستَهاما ... فَإِن تَسهُ سَها أَو نِمتَ نامـا

بِنَفسِكَ لَوعَةٌ لَو في الغَوادي ... لَصارَت كُلُّ ماطِرَةٍ جَهامـا

وَفيكَ صَبابَةٌ لَو في جَمادٍ ... لَأَشبَهَ دَمعَكَ الجاري اِنسجاما

هَوىً بِكَ في العِذامِ لَه دَبيبٌ ... أَشابَكَ وَهوَ لَم يَبرَح غُلامـا

وتدل هذه اللوحة الطبيعية المصورة للغرام والعشق الذي يرى نفس الشاعر، على مكانة المحبوب، وقربه المادي والمعنوي من نفس الشاعر التي تعاني فيه من تباريح الغرام. وتبدو الطبيعة شاهدة على أحوال الشاعر وعشقه الذي يلقيه على الطبيعة كمكان بعناصره الحية والجامدة؛ ليشترك معه في سهره كالنجوم، وفي دموعه كالسحب

---

[1] انظر: العقاد، عباس، ساعات بين الكتب، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط1، 1978م، ص127.

[2] أبو ماضي، إيليا، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 327.

والجمادات، فيظهر المكان الواسع المفتوح؛ ليصف أحوال العاشق، وليعرف سر أحاديثه، وتبرز هنا أنسنة الطبيعة مرة أخرى لدى الشاعر؛ فهو يناجيها كأي إنسان ويشبه حبيبته بها، وهي تقنية لطيفة لدى شعراء المهجر في تصوير ارتباطهم بالطبيعة.

وبعد أن يقدم أبو ماضي المكان في الطبيعة كفضاء مفتوح يعود إلى المكان مرة أخرى ولكنه يحدده في أرض الشام التي يحبها ويعشقها، فيصور أنّ عشقه وتباريح الهوى التي يعانيها تتضاءل أمام حضور الشام فالعلاقة الروحية بينه وبين الشام تصور قمة التدفق الشعوري المحبب بين الإنسان والمكان. فالشام وطن كبير، والوطن " هو البيئة الروحية التي تتجه إليها عواطف الإنسان"[1]. فيعلل بذلك سبب انفتاحه على الطبيعة حيث يبث إليها مشاعره نحو الشام[2]:

إذا ذُكِـــرَ الشَـــآمُ بَكَيـــتَ وَجـــداً ... وَمـــا تَنفَـــكُّ تَـــذَّكُرُ الشَـــآما

وَكُنـــتَ سَـــلَوتَهُ إِلّـــا قَلـــيلاً ... وَكُنـــتَ هَجَرتَـــهُ إِلّـــا لِمامـــا

رُوَيـــدَكَ أَيُّهـــا اللاحـــي رُوَيـــداً ... لَـــكَ الـــوَيلاتُ لَيـــتَ سِـــواكَ لامـــا

أَأَرقُـــدُ وَالخُطـــوبُ تَطـــوفُ حَـــولي ... وَأَقعُـــدُ بَعـــدَما الـــثَقَلان قامـــا

يظهر الحوار في هذه الأبيات بين اللائم والشاعر، وإنْ كان الحديث يبدو حديث النفس للنفس التي تستذكر المكان بطبيعته وجماله، وترى أنّ نسيانه ضرب من الجنون، ونوع من المستحيل؛ لأنّ الشام كمكان حقيقي يسكن في نفس الشاعر، يتحدث عنها وعن هواها أكثر وجدًا وعاطفة من حديث الشعراء والعشاق عن محبوباتهم؛ لانّ عاطفة الانتماء للمكان تمثل قيمة عظيمة لدى الإنسان؛ فالمكان بالنسبة للشاعر المهجري جزء لا ينفصل عن الطبيعة التي يحبها ويعشقها، فالعلاقة الرومانسية القائمة بين الشاعر والمكان يتوجها حبه لطبيعة المكان بكل أنواعها.

وتنعكس الطبيعة بصفاتها ومكوناتها على مفهوم الوطن، فالحرية الموجودة في تكوين الطبيعة وما فيها من جمال وحياة يختزنه الشاعر بذكره للشام التي تسكن الفؤاد. فالوطن هو البيئة الحاضنة للإنسان في وجوده على أرضه أو في خياله عند اغترابه عنه. ويدل النسيان المؤقت الذي يشير إليه الشاعر في الحوار (وكنت سلوته إلا قليلًا) على

[1] الزعبي، أحمد، المعجم الفلسفي المدرسي الميسر، دار الآثار، حلب، سوريا، ط1، 1996م، ص270.

[2] أبو ماضي، إيليا، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 328.

استحالة وقوع النسيان. فالذاكرة مشغولة بالوطن مما يعبر عن التحام الشاعر جسدًا وفكرًا بالوطن.

وتبدو الشام في هذه الأبيات في بُعد عاطفي إنساني، ممزوج بالعلاقة السياسية التي تشعل عاطفة الحب، لتكون شعاعًا للدفاع عن أرضها ومواجهة الخطوب التي تستهدفها. فالعلاقة- عند إيليا أبو ماضي- ليست علاقة عشق مجردة تحب المكان وطبيعته؛ بل إنها علاقة انتماء وارتباط بالأرض ومفرداتها، فهو يسعد بسعادة وطنه ويشقى بشقائه، وهو كالطبيعة في حبه لوطنه؛ إن كان الوطن بخير كانت الطبيعة مشرقة وجميلة، وإن لم يكن كانت كئيبة وقاتمة.

ويعبر أبو ماضي بصورة الطبيعة في حالتها المتجردة من الحياة وفي استعادته لذكرياتها الماضية الجميلة في وصفه باكيًا على ما يحل بلبنان والشام من خراب في قصيدة يقيمها على سؤال ثائر يستفسر عن المكان وأهله بعنوان (لمن الديار؟)[1]:

لِمَـنِ الـدِيارُ تَنـوحُ فيهـا الشَـمأَلُ ... مـا مـاتَ أَهلوهـا وَلَـم يَتَرَحَّلـوا

مـاذا عَراهـا مـا دَهـا سُـكّانَها ... يـا لَيـتَ شِـعري كُبِّلـوا أَم قُتِّلـوا

مَثَّلتُهـا فَتَمَثَّلَـت في خـاطِري ... دِمَنـاً لِغَـيرِ الفِكـرِ لا تَتَمَثَّـلُ

فكأنما الشاعر يقف أمام رسوم الجاهليين وأطلالهم، ولكنه يؤكد أنّ المكان ليس فارغًا من أهله الذين لم يرحلوا عنه. فالفراغ في المكان فراغ نفسي يصور حالة الاضطراب والفرقة بين الناس التي جعلت المكان كأنه أرض خاوية على عروشها، ويرى أبو ماضي أنّ صورة الأطلال لا يمكن أن يعرفها الإنسان المتأمل في المكان، بصورة مغايرة لما هو معلوم عن الطلول في الدواوين التي تكون شاهدة للعيان على خرابها. فالخراب في الأرض ليس خرابًا ماديًا سببه ارتحال أهله عنه وإنما هو خراب في العلاقات بين أهل المكان جعلت الشاعر يصورها ويشببها بالرسوم والأطلال التي خلت من أهلها.

ولقد مثلت صورة الأطلال الطبيعة المتجردة من الحياة، وإن استعادة ذاكرة الشعر القديم لها مدلولات عميقة في وصف طبيعة المكان المعاصر. حيث إنّ الذاكرة القديمة لمفهوم الأطلال تدل على الخراب، وانتهاء مظاهر الحياة في البيئة المقفرة بعد ارتحال أهلها عنها. وقد عبر أبو ماضي بذلك عن الطبيعة المقفرة، بمفارقة غريبة؛ لأن أهلها لم

[1] أبو ماضي، إيليا، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 455.

يرتحلوا عنها. وهذا المعنى له دلالات نفسية تعبر عن التغيرات التي أصابت المكان فانعكست على رؤية الشاعر للطبيعة فجردها من مظاهر الحياة.

وتنفرد صورة الطبيعة بالوحشة والغربة في مكان كان تعج فيه الحياة بأهله. فالفراغ عندما يحل بالمكان المكتظ المزدحم يكون أقسى من الفراغ الذي تسببه عوامل الدهر كالموت والفناء. ويصف الشاعر نفسه عند زيارته للمكان فيخيب أمله في تحقيق السعادة في الطبيعة المظلمة أمامه[1]:

وَإذا تَأَمَّـــلَ زائِـــرٌ آثارَهـــا شَخَصَـــت إِلَيـــهِ كَأَنَّهـــا تَتَأَمَّـــلُ

أَصـــبَحتُ أَنـــدُبُ أُســـدَها وَظِبائَهـــا وَلَطالَمـــا أَبصَـــرتَني أَتَغَـــزَّلُ

يّـــامَ أَنظُـــرُ في الحِمـــى مُـــتَهَلِّلاً وَأَرى الـــدِيارَ كَأَنَّهـــا تَتَهَلَّـــلُ

وَأَروحُ في ظِـــلِّ الشَـــبابِ وَأَغتَـــدي جَـــذلانَ لا أَشـــكو وَلا أَتَعَلَّـــلُ

ويصور أبو ماضي المكان في زمنين الزمن الحاضر الذي أصبح فيه المكان كأطلال بائدة يبكي ماضيها، ويبكي عناصر الطبيعة فيها حيث يؤنسن الأسد والظباء والرجال الأشداء الذين ازدهر المكان بهم. والنساء الجميلات رمز الجمال والحياة السعيدة. وبعد أن يبكي حاضره يستحضر الزمن الماضي الذي كانت فيه الطبيعة جميلة ضاحكة تعج بالحياة، وتسير بها روح الشباب التي لا تفكر في مسميات الأحداث، ولا تقلق لهموم الدهر.

ويضع الطبيعة الجميلة الخلابة عنوانًا لذكريات الماضي التي كان فيها المكان مفتوحًا واسعًا من الناحية النفسية على عكس ما وجدناه في الزمن الحاضر الذي يضيق به المكان، وتنحسر فيه مظاهر الطبيعة وتغدو مجرد ذكرى تثير في النفس البكاء[2]:

إِذ كُلُّ طَيرٍ صادِحٌ مُتَرَنِّـــمٌ إِذ كُلُّ غُصنٍ يانِعٌ مُتَهَدِّلُ

وَالأَرضُ كاسِيَةٌ رِداءً أَخضَراً فَكَأَنَّها ديباجَةٌ أَو مَخمَلُ

فالطبيعة التي يستضيء الإنسان خلال جمالها على صلة وثيقة بأحوال النفس، وما يحدث لها من أحداث وما يمر عليها من صراعات. فالجمال في المكان ينبع من حياة أهله فيه، ومن علاقتهم العضوية بالطبيعة، فالصورة بين الزمنين الماضي والحاضر سببها تغير

[1] أبو ماضي، إيليا، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 455.

[2] أبو ماضي، إيليا، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 455.

أحوال الناس وليس تغير المكان في بيئته وطبيعته. ويؤكد الشاعر ذلك في حديثه عن استغرابه من حدوث التغير المفاجئ في المكان[1]:

لِلَّهِ كَيفَ تَبَدَّلَت آياتُها مَن كانَ يَحسَبُ أَنَّها تَتَبَدَّلُ

لقد وصف الشاعر علاقته بالمكان من خلال استعادته لزمن الطبيعة الخلابة قبل أن يحلّ الخراب بالمكان فكان شعره صادق العاطفة في اتصاله بالمكان الذي يحبه، وكان يظن أنّ عوادي الدهر لا تأتي عليه إلا أنها سنة الحياة في التغيير والتبدل. وقد ظهرت الطبيعة حزينة وسعيدة بحسب مراد الشاعر في وصف المكان والتعبير عن أحواله.

ويصور الشاعر صورة الوطن المتجذرة في فؤاده كغرسة تنمو مع الأيام، لا تقف عنده وستستمر حتى بعد الموت؛ لأنّ الوطن عنده حياة الإنسان بما فيه من اتصال روحي مع ذاته. فالطبيعة بكل ما فيها، وعناصر الجمال بكل صورها ومعانيها لا تعادل حب الوطن في النفس[2]:

لَستُ مُغرىً بِشادِنٍ أَو شادِ أَنا صَبٌّ مُتَيَّمٌ بِبِـــــــلادي

كُلُّ شَيءٍ في هَذِهِ الكائِناتِ مِن جَماد وَعالَم وَنَبـــــاتِ

وَقَديم وَحاضِـــــر وَآتٍ صائِرٌ لِلزَوالِ أَو لِلمَمـــــاتِ

غَيرُ شَوقي إِلَيكِ يا سورِيَّه أَنتِ ما دُمتِ في الحَياةِ حَياتي

تبرز صورة الوطن في نظر الإنسان العاشق كحالة شعورية تمتزج بذاته. فالوطن والشاعر حالة من الانسجام لا تنفصل مهما تعرضت لمؤثرات الدهر أو عوامل الهدم؛ لأنّ الحب نفحة روحية أزلية بينهما كما يعبر عن ذلك. وحب الوطن لا يقارن بغيره من العواطف والمشاعر التي يكنها الإنسان لما حوله من الأشياء سواء من الطبيعة ذاتها أو غيرها؛ فالذات تلتقي بكل أشجانها وعواطفها على حب الوطن. وقد وضح الشاعر أن الوطن كمكان أسمى من غيره فهو يفصل بين الوطن بمفهوم الانتماء والأمكنة الأخرى بجمالها وروعتها فيتدفق حب الوطن مجارفًا كل العواطف التي تكنها الذات لغيره من الأشياء التي لا تعادل حبها له. فحتى الطبيعة بعناصرها الحية والجامدة هي دون الوطن كمكان يخصصه الشاعر بمفهوم الهوية والانتماء.

---

[1] أبو ماضي، إيليا، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 456.

[2] أبو ماضي، إيليا، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 463-464.

وتبرز الطبيعة بحضورها النفسي في تأملات الشاعر في وطنه؛ لأنّه يعبر عن عاطفة صادقة تصور النفس في كل حالاتها فرحًا أو حزنًا. والطبيعة في شعر إيليا أبو ماضي مكوّن فني يبني عليه نماذجه الشعرية، ويحملها طاقة شعرية غنية بالمعنى والدلالة. فهي جميلة المظهر، تعيش فيها الكائنات حياة رائقة، يؤنسن مكوناتها، ويستشعر كل ما فيها من جمال عندما يرسم صورة الوطن الجميل، وتنعكس الصورة السلبية على الطبيعة عندما يكون الوطن في أزمة أو تكون نظرة الشاعر سوداوية. وتأتي الطبيعة بصورة مفارقة للجمال الذي تكون عليه عادة من الشاعر. وهذه السمة في شعر إيليا أبو ماضي سمة نابعة من اتجاه شعراء المهجر نحو الطبيعة التي تعكس الطبيعة النفسية بأحوالها وتقلباتها.

ويمتد حب الوطن عبر زمن الوجود من الحياة إلى الممات، ويستمر عبر حركة الزمن بين الماضي والحاضر والقادم؛ لأنه مكان الحياة بالقرب أو البعد، وقد أشار الشاعر إلى عمق العلاقة بأن أرجع حب الوطن لأزمان بعيدة، وهو بذلك يعمق صورة العشق بعد الممات بصورة مستمدة من الطبيعة، حيث يرى أن حبه عن دخل في باطن الأرض سيكون غرسًا تمتد جذوره في الأرض وتصعد أوراقه وارفة الظلال على الوطن[1]:

فَـــإذا مـــا رَجِعـــتُ لِلظُلُمـــاتِ وَاِســـــتَحالَت جَـــــوارِحي ذَرّاتِ
فَلتَقُـــل كُـــلُّ ذَرَّةٍ مِـــن رُفـــاتي عـــاشَ لُبنـــانُ وَلـــتَعِش ســـوريَّه
وَلتَقُـــل كُـــلُّ نَفحَـــةٍ مِـــن نَـــدٍّ وَلتَقُـــل كُـــلُّ دَمعَـــةٍ مِـــن خَـــدِّ
وَلتَقُـــل كُـــلُّ غَرسَـــةٍ فَـــوقَ لَحـــدي وَلَيَقُـــل كُـــلُّ شـــاعِرٍ مِـــن بَعـــدي

عاشَ لُبنانُ وَلتَعِش سورِيَّه

إننا أمام مشاعر جياشة يعبر بها الشاعر عن حبه المطلق الممتد في الزمان والمكان للوطن. فهو يصف وطينته الراسخة في جذور المكان، والوطنية تعني حب الوطن وهي عاطفة إنسانية تربط الفرد بالوطن[2]، وارتباط الشاعر بالوطن عضوي جذوره راسخة في الأرض لا يوقف نموها ميلاد ولا موت فهي سابقة على كل شيء وباقية بعد الممات.

[1] أبو ماضي، إيليا، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 464.

[2] انظر: مداس، فاروق، قاموس مصطلحات علم الاجتماع، دار مدني للطباعة والنشر، الجزائر، الجزائر، ط1، 2003، ص 295.

إنّ المكان بالنسبة للشاعر أبعد فضاء من صورة الأرض بطبيعتها ومكوناتها وأسلوب الحياة فيها. فالشاعر يعيش في غربة مستمرة عن وطنه ولكنه لا ينقطع عن التفكير فيه؛ لأنه يرى أنّ الوطن مكانه الذي تتجلى فيه العلاقة الحقيقية بين الإنسان والطبيعة، بصورة يلتحم فيها الجسد بالمكان التحامًا عضويًا تعبر عن العاطفة الصادقة التي تحملها كلمات الشاعر وصوره.

وارتبطت الطبيعة بعلاقة متجذرة بالوطن، حيث إنّ وجود الإنسان على ظهر الأرض أو في باطنها يمثل حالة وجودية لا تعتمد على مبدأ الحياة والموت. وقد تجلت هذه الفكرة بتعبير بديع عن مكانة الوطن بوساطة صورة تتمتع بطاقة شعرية تنفذ من اللغة بدلالاتها التركيبية إلى مستوى الصورة المفتوحة عبر الزمن الماضي والحاضر والمستقبل. بل وتعبر عما قبل الكينونة الإنسانية وبعدها. وهذه من أكثر الصور إثارة ورومانسية في شعر إيليا أبو ماضي حول الطبيعة والوطن.

ولم يكن أبو ماضي شاعرًا متفجعًا وحسب على وطنه بل هناك أشعار يذكر فيها الطبيعة في لبنان، ويتغنى بها، ويصفها، ويبين في قصيدة يودع فيها صديقًا لبنانيًا يعود إلى وطنه[1]:

اثنان أَعيا الدَهرُ أَن يَبليهِما ... لُبنانُ وَالأَمَلُ الَّذي لِذَويهِ

نَشتاقُهُ وَالصَيفِ فَوقَ هِضابِهِ ... وَنُحِبُّهُ وَالثَلجُ في وادِهِ

وَإِذا تَمُدُّ لَهُ ذُكاءَ حِبالَها ... بِقَلائِدِ العِقيانِ تَستَغويهِ

وَإِذا تُنَقِّطُهُ السَماءُ عَشِيَّةً ... بِالأَنجُمِ الزَهراءِ تَستَرضيهِ

وَإِذا الصَبايا في الحُقولِ كَزَهرِها ... يَضحَكن ضِحكاً لا تَكَلُّفَ فيهِ

هُنَّ اللَواتِ قَد خَلَقنَ لِيَ الهَوى ... وَسَقَينَني السِحرَ الَّذي أَسقيهِ

وفي هذه الأبيات تبدو طبيعة لبنان الجذابة الأخاذة تنبع من عزيمة لبنان وتدل على قوته التي لا يأخذ الدهر منها ولا يؤثر فيها. ويغري أبو ماضي صديقه العائد إلى لبنان بطبيعة لبنان التي تجعل المكان جميلًا في صيفه وشتائه، وفي كل أحواله. وتبرز الطبيعة في لبنان بصورتها الجميلة التي تعبر عن حب المكان.

[1] أبو ماضي، إيليا، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 771.

ويصور الشاعر الطبيعة بأجوائها الإنسانية التي تظهر فيها (الصبايا في الحقول) بمدلولاتها التي يعبر بها عن الخصب بعد أن نزل المطر وحلّ الشتاء جميلًا هادئًا على أرض لبنان وانتشرت السعادة والجمال في المكان. وتمثل صورة المرأة الجانب المشرق من الحياة التي يعبر فيه الشاعر عن إنسانية المكان الذي يبدو صادقًا في الجمال والرونق الطبيعي كضحكات الصبايا التي لا تكلف فيها. فالحب والهوى في لبنان صادق العاطفة بعيد عن التكلف.

لقد ظهر الوطن في هذه الأبيات مصدرًا لعلاقة الإنسان به كطبيعة مكانية يعيش فيها الإنسان أو ينتمي إليها ويحبها ويعشقها بكل تفاصيلها الحية والجامدة، يتطلع إلى كل ما فيه من سعادة يحلم بها ويستاق إليها، ومن واقع يطمح إلى تغييره والوصول به إلى أعلى وأرقى المراتب. فالعلاقة بالوطن كمكان ليست علاقة عابرة بل هي علاقة عضوية لا تنفصل كعلاقة الأرض بالعشب والطير بالعش، وعلاقة السمك بالنهر؛ لأنها علاقة الإنسان بذاته ووجوده وكينونته التي يسعى إلى تحقيقها وقد عبر أبو ماضي عن تلك المعاني بلغة منتمية إلى المكان والطبيعة وبعاطفة صادقة في تصويرها لعلاقته بالمكان.

إنّ نزوع الشاعر الرومانسي إلى الطبيعة يُعدّ من شعريته ذات الإحساس العميق بالمكان. ولقد ظهر المكان بصور الطبيعة الحية، والأنسنة المتجسدة للكائنات والجمادات. وقد عبّرت الطبيعة عن المشاعر النفسية والقضايا المختلفة التي تهم الشاعر نحو المكان ووطنه فظهرت مواقفه السياسية والاجتماعية، ومشاعره النفسية في صور الطبيعة التي تدل على شدة الارتباط بين الإنسان والمكان من جهة وبين الإنسان والطبيعة كتصور لمفهوم العلاقة ذات الإسقاط النفسي والشعوري على القضايا التي تتعلق بالإنسان والمكان.

الخاتمة

اتسم أبو ماضي بعلاقة متفردة مع الطبيعة التي عاش في ظلها وأحضانها، كما أنها استمرت فكرة ورؤية تضيف آثارها النفسية، وعبّرت عنها أشعاره التي أظهرت امتزاجه بها فهي جزء من رؤيته الشعرية التي عبرت عن عناصر حيّة كالمرأة والوطن بحيث عبرت عن تجليات العلاقة بين الإنسان والمكان في ضوء الطبيعة. ومن أبرز النتائج التي توصلت إليها الدراسة:

- هناك علاقة وثيقة بين الطبيعة وتصورات أبو ماضي الإنسانية في علاقته بها التي تصور الإنسان في نماذجه كالمرأة والعلاقة بالوطن.
- برزت المرأة بعلاقة ممتزجة بالطبيعة بعلاقة تشاركية حيث إنّ المرأة رمز للخصب والنماء الذي يراه الشاعر متمثلًا في الطبيعة.
- لا ينفصل الوطن عن الطبيعة وتزداد صورته قربًا كلما زاد الشاعر اغترابه، إضافة إلى أن رؤية الشاعر الخاصة بالوطن وتحدياته التي بينها ترتبط بالطبيعة وتحولاتها البيئية والإنسانية.
- لقد جاءت صورة الطبيعة كاشفة عن العلاقة الإنسانية بها كما توضح تعلق الشاعر بها بما يعبر عن نزعته الرومانسية.
- توصي الدراسة بإقامة دراسة تتناول العلاقة بين الطبيعة والذات في شعر أبو ماضي، وكذلك تناول الخصائص الفنية لشعر إيليا أبو ماضي.

المصادر والمراجع

بكار، يوسف، اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري، دار المعارف للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 1971م.

الحوفي، أحمد، المرأة في الشعر الجاهلي، دار الفكر العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط3، 1963م.

الزعيبي، أحمد، المعجم الفلسفي المدرسي الميسر، دار الآثار للطباعة والنشر والتوزيع، حلب، سوريا، ط1، 1996م.

السيد، محمود، المرأة في وجدان الشاعر العربي، دار المعارف للنشر والتوزيع، الإسكندرية، مصر، ط1، 1995م.

الشابي، أبو القاسم، الخيال الشعري عند العرب، كلمات عربية للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط2، د.ت.

العقاد، عباس، ساعات بين الكتب، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط1، 1978م.

عودة نعيم، أدب المرأة العربية: الشعر والنثر والحوار، دار غيداء للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، الأردن، ط1، 2015م.

الغول، عطية، المرأة في العصور العباسية، دار الجنان للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، الأردن، ط1، 2015م.

أبو ماضي، إيليا، الأعمال الشعرية الكاملة (جمع وتقديم د. عبد الكريم الأشتر)، مؤسسة عبد العزيز بابطين، الكويت، ط1، 2008م.

مداس، فاروق، قاموس مصطلحات علم الاجتماع، دار مدني للطباعة والنشر، الجزائر، الجزائر، ط1، 2003م.

الناعوري، عيسى، أدب المهجر، دار المعارف للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 1959م.

نوفل، سيد، شعر الطبيعة في الأدب العربي، مطبعة مصر للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 1945م.

الهاشمي، علي، المرأة في الشعر الجاهلي، دار الفكر للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط1، 1960م.